عزيمة البلادين المتجاورين على انشاء مملكة واحدة كما هو فكر بعض الخاصة هناك تصبح جمهورية اسبانيا والبرتغال واحرى بها ان تسمى جمهورية ايبريا من الحكومات القوية ذات الشأن العظيم ، وربك يفعل ما يشاء ويختار

رحلة الى قلمون الاسفل (١)

على اربع ساعات من شمالي دمشق واد منبسط بين جبلين متسامتين طوله من سفح ثنية العقاب الى مزرعة الناصرية لا يقل عن ست ساعات وعرضه ساعتان ترتبه يضاه وباراه مخصبة ومياهه وفيرة بحيث لو حفرت عشرة اذرع او اكثر ينبط الماء غزيراً مع ان الجبلين المتناوحين من شمال الوادي وجنوبه لا صخر فيهما ولا غابة تزينهما . ولو كانا مغروسين بالسنديان والزان والبلوط والشوح لكان هذا الوادي بمطاره الغزيرة وريه التواصل اشبه باخصب الدهول السندسية ولما كان جبل قلمون ضحيحاً بريه وان لم يكن كذلك بزكاء تربه . والعالي والاسفل او التحتاني منه متشابهان وان كانت سهوله اخصب من آكامه وتلاله ومياه الاعالي اعذب من مياه الاسفل . وفي قلمون الاسفل من القرى الآهلات ما يطلق على امثاله في ديار الغرب اسم بلدة وذلك مثل الرحيبة وجيرود والمعلقية والقطيفة وصير وكلها ذات تاريخ قديم وعمران طبيعي وهي بكثرة نفوسها يزيد عمرانها اليوم كما انبسط ظل السلام فيها وامن اهلها على مواشيهم من غارات اشقياء الصفا وجبل الدروز المجاورين لهم من جهة الجنوب والجنوب الشرقي على مسيرة يوم من هذه البلاد

ولقد كان عرب الصفا والنجاة وجبل حوران يغزون منذ سنين اهل قرى قلمون الاسفل في عقر دارهم ويرعون زروعهم وينهبون اطعمتهم وصامتهم ولذلك ضعف عمران تلك الديار حتى على قيد غلوة من القصبات والمساكر فاصبحت الا قليلا مزارع حقيرة ومدائر . وقلت الاشجار فيها حتى في ضواحي القرى وعلى شواطئ الجداول والانهار لان الفلاح اصبح لا يفكر الا في رزق سنته فاذا نجا عليه من شرور النهب فهو سعيد آمن والا فيقضي عليه ان يعيش في فقر ابيس يعقبه فقر وذلة هي الموت حينها او يهيم على وجهه الى اقليم آخر يكون الغرب الى الامن والامان يطلب معاشه بالعمل مأجوراً وكان

(١) المقتبس م ٤ ص ٣٥٩

يستطيع ان يعيش اميراً من ارض اورثه اياها آباؤه واجداده فكان له حكومة تفكر فيه وتدبر عنه بوائق الدهر وعوادبه وتعرف ان مانتقاضاه اياه من الضرائب والاتاوات ليس الا تحميه

ومن العجيب ان الامن ما كاد يرفع رواقه في هذه الديار وتنتظم اصول الادارة بالنسبة لما كانت عليه في القرن الماضي مثلا حتى سرت الى الاهلين هذه نخدة الهجرة الى اميركا فغدا هذا الجبل بمن هجره شفيا وكان يسعدهم لو توفروا على خدمة ارضه واستثمار شجره واستنبات غلاته وتعدين مناجمه والعمل لاستبحار عمرانه ولاقل عدد المهاجرين من هذا الوادي عن خمسمائة من اصل نحو عشرين الف نسمة وكل يوم يزيد نازحهم وقلما يعود احد منهم . يذهب الشبان الافوياء ويبقى في الاكثر الاطفال والكهول والشيوخ حتى كادت تسوء الظنون في مستقبل هذه البلاد وهي اذا لم توافق الى النهوض بنشاط شبانها اهيبات ان تعمر بتكاسل شيوخها وكهولها وحريم .

فلما تعدين مناجمها لا سيما الآن من مثل هذه المناجم فاذا كانت بقعة واحدة وهي جيرود (١) وما اليها تحتوي في جملة ماتحتوي من الفلزات والثروات على اربعة اصناف من العناصر التي نقل او لاتوجد في غيرها فما بالك لو بحث في قرى هذا الجبل وحده عما يكمه صدره من الخيرات الطبيعية .

نعم في جوار جيرود على مسافة ساعة منها الملحة التي يصدر منها الملح الجيد للطعام وتكفي الوف القناطير التي يمكن استخراجها من سورية باجمعها ولذلك يكتفى باستخراج كمية قليلة منه الان في جوار تدمر وحماة وحمص ملحات اخرى ينتفع بملحها دع عنك مافي سائر الاقطار العثمانية من هذا الجزء النفيد

وبالقرب من الملحة معدن الجبس او المليصين يبشونه من الارض قطعاً مستطيلة بطول شبر او شبرين وعرض ثلاثة اصابع ونحن اصبرين بستخرج العامل القنطار الشامي منه بسبعة قروش وقد لايستخرج قنطاراً منه في اليوم الواحد فيأخذه فاعنه من ادارة الغابات والمعادن ويجعله في تنور كبير يحرق وعندها يستحيل الى جبس يدخل في الابنية والتبليط والتواذ وغير ذلك

هذان مما المعدنان اما الثالثان فمادتا القلي او الاشنان يقطعونه ويجففونه في

(١) في معجم البلدان جرود بدون ياء وقال انها من اقليم معلولا من اعمال غوطة دمشق ولعلها كانت تابعة لمعلولا

حقير يدعون فيها الثار ويستحيل ان في « دين شرعي » الجامعة التي لا يقل طولها عن ساعتين وعرضها عن ساعة بين النيل والبر فلم اعثر هذا الشكل يخرج في بقاع اخرى ولكن اعثر الشكل خارج من حدود وشكك نرى كل حضري في دمشق يحرص على ان يتبع حضره من الشق حدود شكك وروائه

فبلاد هذا بعض بقايا الطبيعي حيث يركك الليث ورجال الطبيعة تخرج منها المطلوب الى الواحات والبراري الى الجبال المكلفة ثم يبلغ العليا في جبال تلي ترجمه من دمشق الى المدن السورية في عاصمة هذه البلاد العربية وذلك لعلة الى العلاقات بينهم وبينها ولان الحكومة لا سيما الانراك تأخذ من اهلها حقوقها ولا تقوم بما يجب عليها قبل من الحقوق

وبرسكان الاهلي في قلون بالرح والغوطة يتكونون سبة مستقل بالاهالي حتى الحكومة ويجبون ان يبقى الاهالي هم لا ان يرتاح ليرجعوا الى ديركم ويتشتتوا في البلاد لعلة من الحكومة اذا بنيت سكة حديدية فيبقى كالبرزة في بعض السكك الحديدية الزراعية وبذلك تصدر الصادرات على ابسط وجه وتسهل سبل الاعمار الزراعية والمدنية

بالسكك الزراعية أحيي مولات مصر وأربيت مساحاتها واتسعت ابوابها واذا كان يعتبر الآن ربط دمشق بفجار سكة حديدية لاختصار التوفة والرح وقلون والزبيدي وتعبر الى العراق لاختلاف الصنائع السياسية الا ان من ان يتوم الشام دمشق وحده الاقاليم يتكون سكة الشيخ فضل بين هذه الجهات وصلة العمران في التوفة من انبات الترسه مثل دوما وحرستا وسبينا وفي الرح مثل معلولا وجبعدين وعقربا وفي قلون مثل عربين وبرزة وداريا والمزة وسيدة الرحبة والغابة وغيرها فالعمران بين الاموال ان يتدرجوا ويأخذوا امتداد هذه الاجزاء المتفرقة التي لا تجد بينها طريقاً معبداً ولا بريداً ولا محطة برقية ولا خيلاً ولا سيفلية ولا كاتباً ولا حاسباً بل تجد فيها اناساً يعيشون بعيدين عن بعضهم لا يعرفون منه اكثر ما يعرف اهل السودان عن سكك حرا كتلي في بعض نرى المسافات قريبة والبعد في بقية من البعداء لا تبعد مسافة كيلومتر او بعض كيلو متر على ظهور الخيل

مثال ذلك اذا قصدنا الى هذا الخيل يوم وقفة عيد الصحى فكان الفلاحون يأتونها كل واحد بالبريج مركباً فيها ما كان بالك اليوم من رمضان او انه يوافي هلال العيد

وثبت في دمشق اما من كنا نسأله عن حقة جبل الدروز فكانوا لا يعرفون من امرها الا ان الحكومة جيشت جيشاً عليهم ولا يعرفون ما يليه ذلك من تأديب الدروز على حين هم احق الناس بالفرح بهزيمة الاشقياء لانتشار ظل الامن في تلك الربوع ولانهم طالما تأذوا بهم ونهبت مواشيهم وقتل رعاتهم وزراعهم .

ولا سبيل الى عمران هذه البلاد الا بالامن والعلم فمن جملة اسباب الامن مد الخطوط الحديدية الزراعية التي تقل نفقاتها وتكثر فوائدها المادية والمعنوية فتضاعف اثمان الاراضي هنا كما يتضاعف دخلها وتكثر انجارها ومواشيها والعلم لا ينتشر الا اذا هب اعيان البلاد وعقلاؤها الى انشاء مدارس لابنائهم خاصة تجري على غير الخطة التي يسير عليها ديوان المعارف . فسير في التعليم على طريقة يتعلم بها الفلاحون لانهم فقط بحيث يقرؤن ويكتبون فيها في الجملة ويعرفون المبادئ الاولى من الحساب والطبيعة والنبات والحيوان وشيئاً من تربية المواشي وحفظ الصحة والرياضة البدنية واصول الدين . يعلمون كل ذلك بالعمل اكثر من النظر .

فاقيمت في كل قرية من قرى قلمون مدرسة ابتدائية كالتي انشأها في جيرود كبيرها محمد باشا الجيرودي ووقف عليها بستاناً فيه صنوف الثمار لا يقل ريعه السنوي عن عشرة آلاف قرش لا صبح قلمون بعد عشرين سنة ارقى جبال سورية لما فطر عليه اهله من الذكاء والنشاط .

ثم استحق الزعيم المنوه به كل شكر لانه جرى على غير سنة كرائنا في السخاء فكان فيما نظن ثاني رجل في هذا القرن الرابع عشر وقف مالي في سورية مثل هذا الملك الذي لا يقل ثمنه الآن عن ثلاثة آلاف ليرة . والرجل الاول هو فيما نذكر محمد باشا العمد من امراء عكار وقف على مدرسة دينية هناك ما يكفيها . اما سائر اعياننا واغنيائنا فلم يوقفوا الا قليلا الى وقف ما يوليهم في دنياهم واخراهم فخراً وذخراً ولعل اعيان هذه البلاد من الأسر العريقة في المجد بعد الآن بين يدي نجواها من البذل للعلم ما تقر به العين فيجدون في ذلك ما ذو اغنياء الافاليم في مصر الذي نهضوا بها وما انشؤا للفلاحين من الكتاتيب في بضع سنين مالا تنهض به امة تنتظر من حكومتها ان تعلمها في قرن او قرنين . وليت شعري متى تنبعث من دمشق نفحة من تلك الروح التي انبعثت في القاهرة ففاضت على اقاليم مصر فاحيتها حتى يكون حظ المصريين واحداً في النهوض اليوم كما كان كذلك في القرون الوسطى .